موسيقى المصريين القدماء

الموسيقى فن من فنون الجمال كالشعر والتصوير ينبغ فيهِ افراد قلائل ويمتاز بهِ قوم دون غيرهم . وقد وجد الباحثون في آثار الامم ان المصريين القدماء اول من وضع اساس الموسيقى وتفنن في آلاتها . وكان مقامها عندهم رفيعاً وتأثيرها في نفوسهم شديداً حتى جعلوها من فرائض ديانتهم ومن لوازم افراحهم وأتراحهم . وكان كهانهم يشاركون المغنين ويجلسون في حلقاتهم مع نسائهم وأولادهم . وأخذ الاسرائيليون هذه الصناعة عنهم وجعلوها من شعائر عبادتهم وجرى اليونان هذا المجرى فتفننوا فيها تفننهم في سائر الصناعات وأحلوها محلاً رفيعاً من النحلة والاكرام حتى قيل ان سقراط الحكيم كان يغني ندماءه بنفسهِ لبطريهم . ثم تقلص ظلها بعد اليونان والرومان ولم تنل من عناية العرب ما نالتهُ العلوم الرياضية والفلسفية لان بعض الائمة حرّموها [1] . وظلت في غفلات الخمول الى ان احياها الاوربيون ثانية مع ما احيوا من الصناعات

ويظهر من عناية فيثاغورس بفن الموسيقى ان المصريين الاولين كانوا يحسبونهُ من العلوم الرياضية لان ذلك الحكيم اخذ العلم عنهم . ويؤيد ذلك ما قاله افلاطون الحكيم من انهُ كان للموسيقى عند المصريين شأن كبير جدًّا لما لها من التأثير في عقول الاحداث . وما قاله استرابون المؤرخ من ان المصريين كانوا يعلمون احداثهم فنون الادب والغناء . وقال ديودوروس ان الشعراء والمغنين كانوا يفدون من بلاد اليونان الى القطر المصري لكي يتقنوا صناعتهم فيهِ

ومعلوم ان افلاطون الحكيم اقام في القطر المصري ثلاثة عشر عاماً وقال في كتاب الشرائع افضل كتبهِ ما يأتي « ان الاسلوب الذي مهدناه لتعليم الاحداث كان معروفاً عند

(١) راجع ملخص تاريخ الموسيقى العربية في مستهل مقال « حول مؤتمر الموسيقى » المنشور في صفحة ٣٩٢ من هذا الجزء

المصريين من قديم الزمان وهو انهُ لا يجوز للاحداث ان يروا الاَّ الصور الجميلة ولا ان يسمعوا الاَّ الغناء الموقع . وأقروا على تلك الصور وذلك الغناء وعرضوهما في حياكلهم ولم يبيحوا للمصريين ان يبتدعوا بدعة جديدة تخالف ما تقرر ولا للمغنين ان يغيروا اسلوب الغناء والعزف ولذلك تجد صورهم وتماثيلهم المصنوعة منذ عشرة آلاف سنة مثل صورهم وتماثيلهم المصنوعة الآن لا هذه تفضل تلك ولا تلك تفضل هذه وغرضهم من ذلك المصلحة العامة ولقد اصابوا في ما قرروهُ عن الموسيقى وأفلحوا في وضع قواعدها وجعلها آلة لدفع الضيم . . . ولا بدَّ من ان الواضع لها كان الهاً أو انساناً مخصوصاً بالوحي الالهي »

ويظهر من الصور والآثار المصرية ان المصريين القدماء كانوا مغرمين بالموسيقى متفننين في آلاتها مكثرين من رسومها تزييناً لمنازلهم ومدافنهم وأمتعتهم وانهم كانوا يدرسونها درساً علمياً ويعرفون قواعدها وروابطها ويؤيد ذلك شهادة اثينيوس الذي قال ان اليونان والبربر كانوا يتعلمون الموسيقى من جالية المصريين وان أهالي الاسكندرية كانوا أعلم الناس بالضرب على المزمار وغيره من آلات الغناء

ولا بدَّ من ان تكون هذه الصناعة نشأت عندهم على صورة بسيطة فكانت آلتهم اولاً مثل ابسط آلات الزنوج والبربرة ثم ارتقت رويداً في الاتقان والتركيب الى ان اكتشفوا قواعد الصوت العلمية وحينئذ سهل عليهم ان ينوعوا آلاتهم بحسب مقتضى الحال . وكان لصناعة الموسيقى مقام رفيع عندهم لاننا نراهم ينسبون وضعها الى أحد معبوداتهم ولذلك كان كهنتهم شديدي الحرص على اتقانها علماً وعملاً

وصورة القيثارة التي صدَّرنا بها هذه المقالة وجدت في قبور الملوك بطيبة وهي في الاصل ملونة بألوان بديعة جداً فوجه الملك اصفر وكذلك كل الاجزاء البيضاء في الصورة ذلها في الاصل سمراء اللون والاجزاء السوداء منها مصبوغة باللون الازرق وبعضها باللون الاخضر والاجزاء المخططة مصبوغة باللون الاحمر ومجموع ذلك جميل جداً يروق العين كما يروق صوت القيثار

الاذن . قال العالم بروس في وصف هذا القيثار وغيره من القيثارات المصورة هناك « انها لو قوبلت بكل ما قيل عن الموسيقى الشرقية وآلاتها من أقدم عهدها إلى الآن لكانت دليلاً اقطع من الف شهادة يونانية على ان علوم الهندسة والرسم والموسيقى كانت بالغة اوج ارتقائها حينما صنعت هذه القيثارات . وان الوقت الذي نحسبهُ مبتدأ استنباط هذه الصناعة انما هو مبتدأ احيائها بعد موتها » . وقد وجدت صورة هذا القيثار في قبر الملك رعمسيس الثالث الذي تولى مصر سنة ١٢٠٠ قبل المسيح

ويظهر من الصور المصرية القديمة انهم كانوا يعرفون ما يسمى باتفاق الانغام ويجمعون بين آلات مختلفة في وقت واحد فترى في الشكل الثاني صورة خمس من القينات اثنتين منهن تنقران آلتين مختلفتين من نوع العود وواحدة تنفخ في المزمار وواحدة تصفق بيديها وواحدة ممسكة آلة اخرى لا يظهر إلا زاوية منها . وكثيراً ما كانوا يجمعون بين القيثار أو العود والمزمار والقيثار وقد يضيفون اليها الدف والصنارة . وأعوادهم كلها من المثالث أي انها ذات ثلاثة اوتار فقط ولكنهم كانوا يقصرونها بأصابعهم عند النقر حتى تتمثل في العود جميع الاصوات على اختلاف ابراجها ويصح فيه قول كناجم حيث قال

فكأنما شخص القريض ممثلٌ في العود أو سكنتهُ روح الموصلي

وفي بعض القيثارات ثلاثة أوتار وفي بعضها أكثر من ذلك إلى أربعة وعشرين وتراً . وكان عندهم دفوف وطبول ومزاهر ولذلك كان يكثر عدد العازفين في الحفلات الكبيرة فقد ذكر اتينيوس ان عددهم بلغ أحياناً ستمائة وكان ثلثمائة منهم ينقرون على القيثارات

وكانوا يخرجون الى القتال بالابواق والطبول كما تفعل الجنود في هذه الايام والموقون والمطبلون من آحاد الجند ولكنهم مختصون بهذه الصناعة فلا يتقلدون سيفاً ولا رمحاً على الغالب

والغرض الأول من الموسيقى اقامة الشعائر الدينية على اسلوب يؤثر في النفوس ولكنهم كانوا يستعملونها ايضاً في افراحهم واتراحهم وولائمهم . وكان الكهنة وعظماء الشعب يتعلمونها ويمارسونها ولكن جمهور المغنين والعازفين في المحافل والملاهي كان غالباً من عامة الشعب وكانوا يستخدمون هذه الصناعة للارتزاق

والظاهر ان الرومان اهملوا الموسيقى ولم يهتموا بها فضعف شأنها في هذا القطر مدة استيلائهم عليه . ثم لما انتشرت فيه الديانة المسيحية وزال الملك منهُ أهملت الفنون كلها وعكف الناس على التدين والزهد في الحياة الدنيا . ولم تعد الفنون بعد ذلك الى شأنها الاول . وأخذ العرب الموسيقى عن اليونان والفرس وتفننوا فيها وحسبوها من العلوم الرياضية

ويظن البعض ان الصينيين سبقوا المصريين الى استنباط الآلات الموسيقية ووضع علم الايقاع كما فصلنا ذلك في المجلد التاسع من المقتطف